عفوًا سيدي الرجل

يتأمل وجهها... يتلمس شعرها ... يتحسس صدرها وثدييها...

ينهض من فراشه ويتنفس الصعداء...

- من بين مليارات النساء ليس لي إلا واحدة.

سرعان ما تستيقظ هي الأخرى، فتراه واقفًا بنشاط غير معتاد...

- يبدو أنك اليوم في كامل حيويتك.

يتقدم إليها ويحتضنها قائلا:

- لا تنسي أنني أكملت للتو أقساط المنزل وأصبح ملكًا لي بعد أكثر من خمسة عشر عاما من المعاناة.

- (بابتسامة) لا تنسَ يا حبيبي أني ساعدتك بالمال.

- لم ولن أنسى فضلك، وما دفعتِه دين سوف أسدده.

تغادر سريرها، ترتدي ملابسها وتحضر طعام الإفطار على عجل...

يتأملها وهي تتناول الطعام...

- عادل ما بك تنظر لي هذه النظرة الغريبة؟

- (بابتسامة) تبدين اليوم جميلة أكثر من اللازم.

- أنت اليوم على غير سجيتك.

- عندما يكون المرء مشغولا بأمور ضاغطة تغيب عنه الكثير من الأشياء الجميلة ويحجب عن بصيرته الكثير مما يحتاج إليه في حياته.

- بعد البيت لم تعد بحاجة إلى شيء، سوى أن تبدأ بالادخار.

- سأعمل على ذلك طبعا ولكن بعد إنهاء بعض الأعمال.

- مثل ماذا؟

- سأسدد لك حقك، وأشتري سيارة جديدة، وأجدد بعض الأثاث، وأمور أخرى مشابهة.

- عزيزي لا تسرف، لست في حاجة إلى كل هذا.

- هذه هي طبيعة الإنسان، يتوق للتغيير والتجديد على الدوام ولا يقبل بما بين يديه وإن كان الأفضل.

يرن هاتفها المتحرك...

- حسنًا عليَّ الذهاب الآن، لقد وصلت زميلتي حنان.

تقبله وتذهب...

- سعاد أنت زوجتي الحبيبة ولكن تأكدي من حقيقة مطلقة أن الرجل لا تكفيه امرأة واحدة وإن كانت حورية من الجنة.

**

تسير حياتهما بمسلكها المعتاد حتى إجازة الصيف...

لا أستطيع السفر هذا العام يا عزيزتي.

عجيب أمرك، كنت تسافر طوال الخمسة عشر عامًا الماضية رغم أنك كنت تسدد أقساط المنزل وعلى كاهلك الكثير من الالتزامات.

ذاك هو القلب يا حبيبتي، يتقلب ما بين إقبال وإدبار وحب وكره.

إذن ستسمح لي بأن أسافر برفقة بعض صديقاتي؟

(بابتسامة) بالطبع، لا أستطيع حرمانك من ذلك.

تحزم أمتعتها ... ينقلها إلى المطار ... يرافقها حتى إنهاء إجراءات سفرها ثم يعانقها بحرارة...

يتأملها وهي تمضي برفقة صديقاتها.. ينظر إلى النساء من حوله بنشوة قائلا:

من قال بأن كل النساء سواء؟... إنهن متطابقات في الخلقة ولكنهن مختلفات في الطبائع والصفات.

وليس كل امرأة مثل الأخرى، ولن ينفعني أن أنظر إلى زوجتي لأكتفي من النساء، إنها طبيعتي فلماذا أكبتها وأتحمل أوجاع الرغبة الجامحة؟

**

تقضي سعاد ثلاثة أسابيع جميلة في سفرها، تعود إلى الوطن من دون أن تخبر عادل فقد كانت تريد أن تكون عودتها مفاجأة له... توصلها صديقاتها إلى منزلها.. يشاهدن مصابيح تزينه ...

- هل عندكم زواج يا سعاد؟

- زواج!

- مصابيح الزينة تضيء منزلكم من كل الجهات.

- يا إلهي ما الذي يحدث؟

يجلب السائق أمتعتها إلى باب المنزل... تحاول سعاد فتح الباب لكنها لا تستطيع...

ما الذي يجري؟ لا أستطيع فتح الباب!

يفتح الباب فجأة لترى عادل أمامها ...

- سعاد!

- عادل!

ترتمي في حضنه...

عادل زوجي الحبيب، هل أنت بخير؟

(باضطراب) أنا بخير، لِمَ لَمْ تخبريني بموعد عودتك؟

أردت أن أجعلها مفاجأة لك، ولكن ما كل هذه الزينة؟

يتمكن الصمت من عادل ...

سعاد تنتظر منه إجابة...

عادل.. لِمَ أنت صامت هكذا؟

فجأة تنزل امرأة من الطابق الأعلى... تشاهدها سعاد باندهاش...

من هذه المرأة يا عادل؟

إنها...

إنها من!

تتقدم نحوها بثبات...

- أنا زوجته سميرة.

- مستحيل!

تتجمد سعاد في مكانها من هول الصدمة... تتابع صديقاتها ما يحدث لها وهن في صمت مطبق...

- أحقا ما تقوله هذ المرأة يا عادل؟

ينظر لها بابتسامة خائفة...

نعم يا حبيبتي، إنها زوجتي الثانية والأخيرة، مثلما أنت زوجتي الأولى.

تسقط مغشيًا عليها، يحملها عادل من فوره إلى غرفة نومها، ثم يحضر لها الطبيب الذي يأمر بتنويمها في المستشفى...

تستيقظ من غشيتها.. تجد نفسها في المستشفى، ووالدتها وأشقاءها يحيطون بها ...

الحمد لله على سلامتك يا بنيتي.

تنظر لهم والدموع تنهمر من عينيها...

تحتضنها والدتها...

- لا بأس عليك يا حبيبتي ما حصل قد حصل.

-(ببكاء) لِمَ فعل ذلك؟ ما الذي جنيته بحقه؟

- الرجال دائمًا وأبدًا لم ولن يتغيروا، ما إن يحصلون على المال حتى يتزوجوا بأخرى... عيونهم الجامحة لا يمكن لأي امرأة أن تملأها أبدًا.

يتركها الجميع لترتاح...

تتعافى سريعًا وبعد عدة أيام تجتمع العائلتان في منزل عادل...

إما أنا أو هي!

هي زوجتي وأنتِ زوجتي، ستسكنين في عين، وستسكن هي في العين الأخرى.

كلام فارغ، أنت غدرت بي ونسيت تضحيتي من أجلك.

ليست تضحية بل واجب، كل امرأة عليها أن تقف إلى جانب زوجها.

حرمت نفسي من الأطفال من أجلك، أتنكر؟

لا أنكر، ولكنك أنتِ من اخترت ذلك بكامل إرادتك، وأنا لم أكن لأرغمك عليه أو أظلمك بأي شكل.

تتزوج عليَّ وتقول لم تظلمني!

لأنني مارست حقًّا مشروعًا لي.

أي حق هذا؟

لا أنا ولا سميرة ظلمناك قيد أنملة.

ما وجه تقصيري معك؟

الأمر ليس تقصيرًا، بل احتياج.

بل هو ظلم واعتداء منك عليَّ.

كلا، لم أعتدِ عليك ولم أظلمك، عندما تزوجنا كنت تعلمين بأن لي الحق في الزواج عليك ثلاث نساء أخريات بموجب عقد الزواج الذي بيننا، ولم تعترضي ولم تسعي إلى إلغاء هذا الحق.

تلوذ بالصمت...

اشترطتِ عليَّ إكمال دراستك، والسماح لكِ بالعمل والسفر بمفردك، وأن تسكني في منزل مستقل، ولم تشترطي ألا أتزوج عليك.

قولي بأن هذا لم يحدث؟

يصمت الجميع...

ينظر عادل للجميع بغضب ويخاطبهم قائلا:

- ما الذنب الذي ارتكبته ليحل غضبكم عليَّ جميعا؟ من حقي أن يكون لي زوجة أخرى ومن حقها -يشير إلى زوجته الثانية سميرة- أن يكون لها زوج تعيش معه وتهنأ به.

ثم يلتفت إلى سعاد..

- وأنتِ يا سعاد لن يتغير عليك شيء البتة، ستظلين زوجتي وحبيبتي الأولى.

يقف شقيق سعاد متكلمًا:

ولكنها أقرضتك مبلغًا ضخمًا من المال لبناء هذا المنزل، أتنكر؟

لا، لا أنكر.

وبدلا من تسديده لها تزوجت عليها، على الأقل سدد دينك، ثم افعل ما تشاء.

تقف سعاد بقوة وثبات ...

- حسنًا اكتب لي نصف المنزل.

- ماذا!

- ألم أساهم معك بأربعمئة ألف ريال؟

ينتابه الصمت ويتطلع إلى وجوه من حوله بحيرة وشتات...

ما بالك يا زوجي الحبيب صامتًا هكذا؟ لِمَ لا تجيب؟

ينظر إلى زوجته الثانية تارة ثم إليها تارة أخرى...

- وماذا إن فعلت ذلك؟

- ستكون قد وفيت لي بحقي وما ظلمتني.

- حسنا، لكِ هذا، سأكتب لكِ نصف المنزل ليسقط دينكِ عني إلى الأبد.

- اتفقنا، سأكون أنا في الطابق الأرضي وهي في الطابق الثاني.

- (بتأفف) حسنا موافق.

ينفض الاجتماع... ترجع سعاد إلى منزل أهلها، بينما تعود سميرة مع عادل إلى غرفتهما في الطابق الثاني...

- ما الذي فعلته! كيف تكتب لها نصف المنزل هكذا بكل سهولة؟

- المنزل بـــ ٨٠٠ ألف ريال، وهي دفعت نصف هذا المبلغ فعلا.

- ولكن!

-ولكن ماذا؟ هذا حقها.

- أخشى من عواقب هذا الأمر.

- أي عواقب؟ سيكون لي الطابق الثاني وهي الأرضي، وبهذا نكون قد تراضينا، والأرض مناصفة بيننا، أما أنتِ فسوف أصنع لك مدخلا مستقلا وأغلق السلم الواصل بين الطابقين، فلا ترينها ولا تراك بل لن تشعري بوجودها إطلاقا بعد ذلك.

- أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام .

**

تظل سعاد في منزل أهلها إلى أن يفي عادل باتفاقه معها، إلا أنها تظل معتكفة في منزل عائلتها...

يحاول عادل إقناعها بالعودة...

- سعاد، لقد نفذتُ ما اتفقنا عليه فلمَ لا تعودين؟

- لا أزال مجروحة مما فعلت!

- الذي حدث قد حدث، لن يتغير شيء في الكون، ولم ينتقص منك أي حق، عودي إلى بيتك رجاء!

تعود سعاد على مضض... يحاول عادل التقرب منها إلا أنها تظل معرضة عنه ...

- سئمتُ إعراضَك وجفاءك! ما الذي حدث لكي يخرج منك كل هذا الجفاء الدفين؟

ما أنا إلا رجل عادي، لست وزيرًا ولا أميرًا لتتمسكي به وتسعي للاحتفاظ بي لنفسك! لستُ مِلكًا لك أو لغيرك أتفهمين!

صَمْت...

- ما بالك صامتة هكذا؟ أوعيتِ ما قلته لكِ أم لا؟

تقف بـــحماس...

عادل، طلقني!

يرتسم الذهول على وجهه ...

هل أنتِ مدركة ما تقولين؟

تجيبه بوجه غاضب...

- إنني أعي ذلك جيدا.

- أكُلُّ هذا لأني تزوجت امرأة أخرى!

- أنتَ مارست حقًّا من حقوقك وأنا الآن أمارس أيضا حقًّا مـن حقوقي.

- حسنًا... ومن حقي ألا أطلقك.

- لا، ليس من حقك أن تبقيني زوجة لك رغمًا عني، كما أنه ليس لي أن أظل زوجتك رغمًا عنك.

- حسنًا، افعلي ما تشائين.

يدخلان في دوامة من الجلسات والمرافعات حتى يحكـم القـاضي لها بالطلاق في نهاية الأمر...

يغلق عادل المدخل الذي يربط الطابقين لكي لا يلتقي بطليقته...

تمر الشهور ثقيلة عليه ...

سميرة: أما زلتَ متأثرًا مما حدث؟

عادل: ما حدث قد انتهى أمره، سأتقدم بطلب إجازة لنسافر، ما رأيك؟

- موافقة طبعًا، فبعد كل ما جرى نحتاج إلى راحة عاجلة.

يسافران ليقضيا مدة في الترحال والاستجمام... بعد مرور شهر يعودان أدراجهما بعد أسابيع قضياها في أكثر من بلد ...

سميرة: ما هذه الزينة التي نشاهدها!

عادل : أمر غريب حقًّا!

يقف عادل أمام البيت وهو في قمة اندهاشه...

- ما الذي يحدث؟ ما كل هذ الأضواء المبهرة!

يخرج إليه شقيق سعاد...

يبادره بالسؤال ...

- أنت! ما الذي يحدث هنا!

ينظر له بصمت...

- أجبني!

- سعاد!

- (بغضب مستطير) ما بها؟

- تزوجت!

- (بذهول) ماذا!

ينتابه الصمت من هول الصدمة...

تدنو منه سميرة...

- عادل ما دهاك؟

يتهاوى إلى الأرض إلا أن سميرة تمسك به...

ينظر إليها تارة وإلى شقيق طليقته تارة أخرى ثم يغمى عليه...

يستيقظ من غفوته لينظر في وجوه الجميع باستغراب ثم يضج ضحكًا هيستيريًّا وهو يردد:

- زوجتي تزوجت!

سميرة: ما الذي دهاه يا دكتور؟

الـدكتور : إنهـا صـدمة عصـبية بسـيطة، سـأكتب لـه مهـدئات وسيكون عـلى مـا يـرام، ولكـن إن لم يسـتفد منهـا لا بـدَّ أن ينقـل إلى المستشفى دون إبطاء.

تمر أيام طويلة وثقيلة قبل أن يسترد عادل عافيته...

سميرة: علينا أن نغـادر هـذا المنـزل يـا عزيـزي، لا بـدَّ أن تبيعـه لنرحل من هنا.

يستمع إليها بهدوء...

فجأة... يسمعان دقات جرس الباب...

يذهب عادل لفتحه...

- مرحبًا!

- أهلا.

- أنا جارك.

- جاري!

- نعم أنا الذي أسكن في الطابق الأرضي من هذا المنزل!

- أنت...!

- نعم أنا هو!

- (بغضب) ماذا تريد؟

- في الحقيقة أيها الجار العزيز جئت أعرض عليك أن أدفع لك مبلغًا من المال نظير شراء حصتك من الأرض والعقار.

- تبًّا!

- إنها رغبة زوجتي وأنت تعلم كيف تكون المرأة إذا رغبت في أمر.

- الويل لك! أنت تتحدث عن امرأة كنت أنام معها في فراش واحد وأعرف تفاصيل جسدها أكثر منك.

- أرجوك احفظ لسانك أنت تتحدث عن زوجتي!

- زوجتك!

- نعم، كانت زوجتك وهي الآن زوجتي.

- الويل لك!

تتقدم منهما سعاد مرتدية نقاب تظهر منه عينان مكحلتان وعباءة مزركشة يشم منها رائحة عطر نفاذ ...

ينظر لها عادل في ذهول...

- أرجوك احفظ أدبك بحضور عقيلتي!

يتطلع له عادل بحقد...

تتحدث سعاد بغنج ودلال...

- حبيبي! هل اتفقت مع جارنا؟

- كلا! ليس بعد.

ثم يلتفت إلى عادل...

- اسمع أيها الجار، سندفع لك نصف مليون ريال مقابل حصتك، ما رأيك؟

يعرض عادل عنه...

- ماذا قلت يا أخ عادل؟ إننا نريد تملك العقار بأكمله لنضمن مستقبلًا أفضل لأبنائنا!

- أبناؤكم!

- نعم فزوجتي حملت منذ الأسبوع الأول لزواجنا!

يسقط عادل على الأرض ... ينقل على عجل للمستشفى لتلقي العلاج... لا يستطيع تحمل بقاءه قريبًا من سعاد... يبيع نصيبه من المنزل ليرحل بعيدًا عنها، إلا أن عباءتها المزركشة، وعينيها المكحلتين لا تزالان تعصران في قلبه حرقة الفراق وتشعلان فيه نار شوق لا ينطفئ.